مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد السابع شوّال –ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ديسمبر– فبراير ٢٠٠٤ م

- مركز المناخة الحضري ذاكرة حية لتراث المدينة
- رواد علم السيرة في المدينة
- فخري باشا والدفاع عن المدينة : ملحمة ومأساة
- البيوت التقليدية في المدينة المنورة
  أثر مواد البناء وأساليبه في تجانسها العمراني
- شد الأثواب في سد الأبواب للسيوطي (تحقيق)

جماليات المكان

المدينة المنورة .. قراءة في كتاب هتاف من باب السلام

لعاصم حمدان

محمد الدبيسي

كاتب وناقد سعودي

مدخل

الجمالية بوصفها مستوى متعاليا في تكوين العالم ، بما ينطوي عليه من أشخاص وأشياء ، وبوصفها علامة في المعجم الفني والنسق الإبداعي ؛ إنما نتعاطاها بهذا الوصف ، ونبرر علاقة الاندهاش بالجمال ؛ ليكون لفعل الحس انعكاسه على التعبير .

ما أجملك ..!

صيغة مسندة للمكون الوجودي الظاهر مكانًا وإنسانًا ، وعوالم وذرات ندركها بالحواس ، ونعبِّر بالصيغة السببية للانفعال النفسي بالجمال ، لنستظهر الملامح الناجزة لكيمياء الجمال ، ونفتتن بمكوناتها وتجلياتها ، ومن ثم تصبح الجمالية متواليات مظهرية وجوهرية تدركها الحواس ، ونتجاوز بها مرحلة الإضمار الانفعالي النفسي إلى المشترك المدوَّن والمعبِّر عن جمالياته المحسوسة ووثائقيتها ، ومن إحساس تضمره الذاكرة ، وتتذوقه الحواس ، إلى فعل كتابي مقروء .

مكونات ذاكرة الكاتب

ويستدر الكاتب مكونات الذاكرة عبر محورين رئيسيين هما :

١ - **المكان :** المدينة المنورة .. البنية الجمالية المراد استظهار مكوناتها .

٢ - **الإنسان :** مجموعة أشخاص تمكنوا من ذاكرة الكاتب واستوطنوها برابط علائقي امتزاجي بيئي .. يبلغون ذلك الشأو في التعبير عن البنية الجمالية للمكان ؛ إذ المكان هو المؤثر الفعلي في وجودهم ، وهو مسرح حياتهم ، وسنجد ما يدعم زعمنا هذا ، في سياق الحكي الذي يورده المؤلف ، وفي تجانس وتوالي ورود أمكنتهم التفصيلية أو المتوارية ضمنا في العنوان المكاني الكبير (المدينة المنورة) ..

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

محمد كبريت استبصار الجماليات من قبل

سبق أن وثَّق محمد كبريت بن عبد الله الحسيني (١٠٧٠هـ) في كتابه (الجواهر الثمينة في محاسن المدينة) وجوده في المكان في استبصار الجماليات العيانية والنماذج الإنسانية ؛في خضم (مدينة) أُريد لها أن تكون استثناءً ، وأن تحظى بذلك المد من الاهتمام والبحث ، والتأليف ، وأن تترك وجودها في وجدان كل من سكنها وزارها .

بعد تلك السنين ، و بعد أن اشتمل كبريت الحسيني في مؤلفه واقع المدينة/المكان براهنيته الزمنية ؛ عبر ذائقة عفوية مؤسسة على حس جمالي؛ يتوخى الدقة والموضوعية ، وكان باعثه النفسي متجذراً في ذات محبة وعاشقة للمكان ، يأتي «مدني» آخر، هو (عاصم حمدان)[١] ليؤلف كتابه « هتاف من باب السلام »[٢] مستعرضاً فيه ، متواليات عدة من سيرته الذاتية ؛وتفاصيل مقامه في المدينة المنورة في بدايات حياته .

كتاب عاصم حمدان مصنف في السيرة

وعندما نصنف كتابته في الجانب السيري ، وإن لم ينص هو على ذلك ، ولم يتحفز لتأكيده فنياً عبر كتابته ، فلأن المصطلح النقدي يعرف السيرة الذاتية بأنها «حكي استعادي نثري يقوم به شخص يعبر عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة »[٣] .

وثمة شواهد لهذا التعريف يزخر بها «هتاف من باب السلام» في حفره في بناء الذاكرة واستحثاثه لمحمولها على الانكتاب، ونقله من المحفوظ الذكروي

---

(١) عاصم حمدان علي الغامدي ولد بالمدنية المنورة عام ١٣٧٣م وأكمل تعليمه بها حتى المرحلة الثانوية وتلقى كثيراً من العلوم في المسجد النبوي الشريف .وعلى علماء المدينة ، أصدر عدة مؤلفات عن تاريخ المدينة الأدبي والاجتماعي منها (المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ) و (حارة الأغوات) و (حارة المناخة) و (ذكريات الحصوه) [نقلاً عن موسوعة الأدباء لكتاب السعوديين ، لمحمد سعيد سليم ، مطابع دار العلم – الطبعة الثانية ١٩٩٩م – صـ٢٣٢] .

(٢) هتاف من باب السلام ، لمحات من ماضي المدينة المنورة ، د . عاصم حمدان الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م – الناشر مكتبة دار جدة .

(٣) فليب لو قون ، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ، ترجمة عمر حلبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٤م ص ٢٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المختزل و المنجز عبر رحلة الحياة إلى كتابة تعبِّر عن البيئة العلائقية بين الإنسان والمكان ، وتدوين تفاصيل تلك الرحلة، التي تتقاطعها توجهات المعترك الحياتي اليومي ، ويسهم في تشكيلها الأشخاص الذين ينبثق منهم ويتفاعل معهم ، وجزئيات المكان .. ووقعها في ذاته .. !

المسافات التي سار عليها ، والمواقف التي اعترضته ، وتلك التي صنعها ، وكان جزءاً من مكوناتها .

ومكونات المكان تتخذ وجوداً مختلفاً ، في وجدان وفكر كل من التبس بها قراءة ومعاينة ومعايشة، كما قرأناها لدى كبريت الحسيني في القرن الحادي عشر الهجري وكما يقرؤها مهندس معماري ، يعي عمق تجلياتها في ذاته ؛حيث يقول (مشاري النعيم)

تجليات المدينة في أعماق مهندس معماري

« قليلة هي المدن التي يكون قدرها التغيير ، قليلة هي المدن التي منذ أن تكونت وهي تمارس نوعاً من التحول، تحولاً متجهًا إلى الكونية يجمع كل الخصائص البشرية مدينة الرسول التي لم تهدأ يوماً ولم تقبل أن تكون مدينة ساكنة رغم كل السكون والسكينة التي تملؤها ، مدينة في حالة تغيير مستمر فهذا هو قدرها ، لم تكن يوماً إلا مدينة كل المسلمين ، يعيشون كل الأمكنة في مكان واحد وكل الأزمنة في زمان واحد »[1] .

فهذه رؤية مهندس معماري يحلل بنى المكان ؛ برؤية تعي انبناء الفيض العشقي للمدينة من لدن كل المسلمين ؛بحيث يمتزج فيها المكان والزمان في آن ، وتتحول بفعل حركي مستمر ، ولا تأنس للسكون ، أو الجمود ، وهي على تلك الصفة، تنعم بالسكينة ؛ لتهب ساكنيها وزائريها الطمأنينة ، ويكون ذلك قدرها الأبدي .

وعندما يستنطق « مهندس معماري » هذا المفهوم ؛ فإن ثمة مرتكزات عقلانية وأساسات منطقية معاينة ؛ في مشهد المدينة اليوم ، تجعل رؤيته تلك ،

(١) د. مشاري النعيم – طيبة الطيبة ، مكان لكل الأمكنة – مجلة البناء العدد ١٣٥ نوفمبر ٢٠٠١هـ ، ص ٤٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

واقعاً ماثلاً للعيان ، وتكوينات تمنح رؤيته حقها من الشرعية والوجاهة ، وهو ما سنؤسس عليه في تحليلنا لسيرة عاصم حمدان في كتابه « هتاف من باب السلام » ، حيث تتضامن معطيات رؤية المهندس المعماري المصوغة بلغة أدبية مشرقة مع تفاصيل سيرة «ابن المدينة» في التبصر بجماليات المكان ، وفق كمائن تلك الجماليات وتجلي نماذجها ؛ في تأكيد على توالي النسق الوجداني الفعلي للرؤية ، التي أسلفنا ذكرها للعلاقة المشار إليها ، ذلك النسق الذي يتخذ من المضمون المعرفي شكلاً تعبيرياً يضطلع بالمحمول ، بينما يتوافر في نصانيته على بوح سردي / حكائي ، يتناول في صياغة حميمة ، سيرة الذات في أجزاء متقاطعة ، وليست مترابطة زمنياً ، ولا يحكمها تسلسل السيرة العُمْري ، وإنما يحكمها الناظم الوعيّ لدى المؤلف ؛ على اعتبار أثر الباعث الذاتي ، واستدعاء الوجدان ، واسترجاع الماضي ، [الفلاش باك] ، حيث تتوالى الذكريات الواقعية بمشهدياتها وبزخمها النفسي .

وهو هنا لا يقصد السرد الفني ، ولا يراوح بخياله في أفق تكوين شخصيات لاواقع لها ، وإنما هم أشخاص عايشهم وتفاعل معهم وبهم ، وشكلوا في حياته وذاكرته حيزاً على هذه المساحة من المكان / المدينة ، **فنحن إذن ، إزاء العالم الواقعي / لا المتخيل** ، الواقعي بشخوصه وأشخاصه وأحداثه.، يجماليات المكان المحدد بالاسم والصفة والتفاصيل الجغرافية.

بل إن المكان لدى عاصم حمدان ؛هو العتبة النصية التي يلج من خلالها إلى الخطاب ، سواءً في مجمله العنواني « هتاف من باب السلام - لمحات من ماضي المدينة المنورة » - فباب السلام أحد أبواب الحرم النبوي وصار علماً منذ ذلك الحين لأبرز شوارع المدينة الممتدة من هذا الباب ، - أو عبر دلالة الجذر اللغوي لكلمة « هتاف» ، والهتاف : ذلك النداء العالي ، الذي يشير بدلالته إلى الانطلاق من العمق بعنفوان وقوة ، .ورغبة المهاتف بإيصال ندائه إلى من يسمع .

فكل الحديث الذي سيلي (العنوان) إنما يمثل امتداداً للهتاف ومادة للصوت ، والتحديد هنا «من باب السلام» تخصيص لشرف المكان الذي يحيل بدوره إلى الحرم النبوي والذي يحيل إلى المدينة في متواليات التداعي الذهني لدلالة العنوان :

هتاف ←— باب السلام ←— الحرم النبوي ←— المدينة «المكان» .

فثمة إشارة بارزة في مسار الإحالات الدلالية تعطي لهذا الهتاف زخماً استثناسيا ، وتمنحه خصوصية ناتجة عن قدسية المكان . ومعطاها هذا الهتاف .

البنى الدلالية في الكتاب

ويتواتر مع هذه الدلالات الجزء التفسيري المسند إلى جملة (الهتاف) ؛ لمحات من ماضي المدينة المنورة ، والذي يتوافر على ثلاثة بنى دلالية هي :

١ - السيرة المعبر عنها بـ (اللمحات) .

٢ - الماضي بصيغة النكرة ؛ وهو الزمن المفتوح غير محدد تاريخيًا .

٣ - المكان؛المدينة المنورة .

وتتصل هذه الدلالات الأولية بالمساق النصي للكتاب المتدرج من عتبة نصية هي (المكان) يلج إليها بقوله :

«من باب المصري تنتقل خطوات الفتى إلى موضع آخر يحفل بحياة صاخبة هذا الموضع هو «سوق الحراج» يتذكر كيف أن والده يأخذه ليحلق رأسه عند واحد من الأخوين «الخستة» وكان يوم الحلاقة يوماً صعباً عند هذا الفتى ، فالمعلم شديد عندما يمسك برأسه فلا يتركه إلا وقد اجتث شعر الطفولة الفاحم اللون ، وهو لا يجد تفسيراً لما يسمعه من والده بأن تربية الشعر أمر غير محبب ، وأن إمالة الكوفية إلى الأمام لا يفعله إلا المطاليق من الرجال »[1] .

فهذا الاستهلال العفوي ، وغير المرتبط عضوياً بعلاقة سببية مع الزمان ، غير منصوص عليه تحديداً ، إنما يأخذ ركيزته المرجعية من المكان، الذي يحدده المنطوق النصي في عتبات النص ومداخله ، سواءً بالعنوان التصديري للكتاب ، وتيمته الأولى ونواة نصَّانيته ، أو بالولوج من خلال عتبة النص ، ومن ثم تتوالى

(١) ص ١١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التفاصيل السيرية للفتى بالمدينة ، والتي تمثل مسرح قراءتنا هذه ، حيث تأخذ البداية الاستهلالية ؛ انطلاقها من ذاكرة مزدحمة ومليئة بالمواقف والذكريات والأحداث ، ويبدأ الناصُّ بالتقاط ناظمها الأول ومدخلها الرئيسي « باب المصري » ليعقد معنى متوارياً بين الولوج في الذاكرة ، والولوج في المكان ؛ ومن ثم يتداعى رصيد الذاكرة عفوياً كما يمثل هذه المجتزأ ، الذي تنداح لغته إلى إيقاع همسي صميم ، من ذاكرة وروح مولعتين بالمكان .

على أن الناص / الكاتب يتخذ من الكتابة معبراً إلى استنزاف حمولة الذاكرة ، ليس بأحداث متخيلة ، وإنما بعالم جماليات معاشة بالممارسة والاقتراف ؛ وبصيغة المروي عنه « الفتى » ، فحين يتلاشى المتكلم / الكاتب ؛ لينزاح ضمناً إلى (الفتى) إنما يكثف من تعميق المنجز الفعلي والزاخر للحياة حياة (الفتى) ثم إلى استبصار واع بماهية العلاقة التي توجدها الكتابة عن المكان ، بين (الكاتب / المؤلف) و (الكاتب / الفتى) المروية عنه الأحداث جملة .

وضمير الغياب الذي يتجسد كصيغة أسلوبية ، في نص عاصم حمدان «هتاف من باب السلام» يترك للكاتب مساحة في الحذر من « السقوط في فخ الأنا الذي قد يجر إلى سوء فهم العمل السردي ، وأنه ألصق بالسيرة الذاتية ، وذلك على الرغم أن الكاتب المحترف قد ينعت نفسه في محاولة فصل « الأنا » السردي عن «الأنا» الكاتب ؛ ولكن ذلك قد لا يكون إلا بمقدار »[1] .

والمؤلف هنا إنما ينفصل في لعبة الكتابة عن الكاتب ؛ بحيث يترك لرؤيته استدراركمين الذاكرة من تتبع الفتى ، ورصد حركته في المكان والأشخاص ، والتعبير عن أحاسيسه والوصول به إلى ذروة البوح في إسنادات متتالية إلى الفعل الماضي ، الذي يتكرر في المقطع الأول اثنتى عشرة مرة ، وفي التنصيص على تدوين فحوى العلاقة التي يمثلها الفعل الواقعي والسيرة الحركية المعبر عنها بالفعل الماضي ؛ اتساقا مع الدلالة العنوانية :

(١) د.عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد . عالم المعرفة ديسمبر كانون الأول ١٩٩٨م صـ١٧٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

« أغلق على نفسه الباب ، وارتمى على الأرض ، دخلت عليه أمه لتشاهد مأساته ، واستفسرت كعادتها - بشيء من القسوة - لماذا فعلت ذلك ؟ أجابها بصوت خافت - فلقد تعلم من أبيه أن رفع الصوت في المنزل من ضروب الأخلاق السيئة - أجابها .

يا بني - تذكرت المرأة الصابرة التي لا تعرف في حياتها سوى منزل الجد ، في تلك البقعة النائية في أرض السكة ، ويعاوده صوت أبيه الأجش عندما يصل برفقة أخوته إلى دار جده - : يا أبا سليمان ؛ الأبناء اليوم في ضيافتك ، وإذا ما ارتفع صوت المؤذن لصلاة المغرب يجب أن يكونوا في دارهم برفقتك »[1] .

الارتباط بالمكان يجسد روحانياته الفوقية

إن ثمة ارتباط بالمكان لدى عاصم حمدان يتجاوز تدوين ذكريات ماضيه عن الإنسان الذي ارتبط بنماذجه أباً وأخاً وصديقاً ومعلماً وجاراً وخبازاً ، و ...الخ إلى تجسيد تلك الروحانيات الفوقية ، في هكذا علاقة واستجلاء حيثياتها ، بحيث يتحول حديثه إلى ما يشبه البكاء ، رآهم الفتى - يومها - ينثرون شيئاً من الورد حول الرجل الذي أحب التربة المباركة ، كبقية أهل الحرم ، فاحتضن الذرات الطاهرة من أجل ذلك الحب الإيماني العميق ، إنه الحب الذي تعبدت به دروب هذه الحياة واستقام به شأنها واغتسلت به النفوس التي سرى في شرايينها وامتزج بعروقها في توالي كتابة السيرة ، بنبرة يحتشد في لحظة كتابتها الحنين إلى وقتها ، والأسى على اندثارها ، وكذا تبدل الواقع ، وتغير باتجاه راهنه الجديد ، ووضعه المغاير .

ولعله الحد الفاصل بين تجنيس « هتاف من باب السلام » من صيغة السيرة الذاتية في رؤاها الروائية ، إلى وثيقة تحفل بالمكان كمركزية أولى ، وثيقة ارتباط تعطي للإنسان مرتبة ثانوية في تعالقها العضوي معه .

---

(١) ص ١٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فالمكان الذي يعلن الكاتب بدءاً إشهاره بكل أبعاده ودلالاته ، ورصيده الكبير في الذائقة المتلقية ، يكوِّن لدى المؤلف ، مدىً من الاحتمالات المفاجئة بما يستحثه فيه أثناء عملية التدوين ، وما تفضي إليه أجزاؤه وحدوده ، على أن تحديده المنصوص عليه جغرافياً يعبر عن فحوى ذلك الارتباط الذي تستعاد شواهده بقدر تنامي الولع بتوالي ذكريات النفس فيه ، إذ ينتقل التأثير المكاني / المدينة في الذات الكاتبة ، والمعبر عنها صياغياً بما يُحَدِّث به (الفتى) إلى حيز فني في الذائقة الكاتبة ، التي يترك لها المؤلف فوضى الاندماج والبوح والإفضاء .

أهم الفروق بين مؤلفي عاصم حمدان ومحمد كبريت

على أن علامات التدوين المفارقة بين عاصم حمدان ومحمد كبريت الحسيني في (مؤلفيهما) تكمن في إبراز الأول للارتباط والتلازم ، بين عنصري الزمان والمكان / المدينة، والتي تفصح عن ذكريات الفتى وسيرته ، بعد انقضاء هذه الفترة الغير منصوص عليها في كتابه ، وإن كانت مفهوماتها تجعل القارئ يحصرها في فترة السبعينيات الهجرية من القرن الهجري الماضي ، بينما تحتوي كتابة كبريت الحسيني بدايات منتصف القرن الحادي عشر الهجري وما تلاها .

فعاصم حمدان الذي يتوفر من مؤلفه وتدوينه عن المكان ؛ تسرية الذات وتوثيق جزء من مخزونها ، واستصفاء لذة الذاكرة وحمولاتها ؛ إنما ينحاز للمكان لإبراز الجانب الفعلي الحي من جمالياته وتدوين هذه الجماليات المؤسسة على متن سيرته والمتأتية من مضامينها ، تستقصي ذاته المكتنزة بألفة المكان ، والتي تند إلى استرجاعاتها بمحايثات استنطاقية تجاه المكان ونواميسه التي حضرت في ذاكرة (الفتى) تفاصيلها ، والتي يصبح إعادة تسجيلها ملذات تجاه الكتابة ، والتدوين ، وليس هماً معرفياً يشغل الذات المولعة بحيزها الوجداني.،والمتشربة عبر الزمن بأيقونات الاشتغال على إعادة رسم تكويناته الوقائعية ، وتسجيل تفصيلات تراكماته .

والخطاب المتجدد من المؤلف (الفتى / المؤلف / الابن) ، ينتقل بصيغته الإخبارية إلى المتلقي والذي يتوجه إليه بالحديث « الابن » :

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

« لم يكن يابني يغري أباك في صباه ما كان يغري أنداده من لهو برئ ، كان يرى شباب الحي يؤمون بالمقلاع ، وينقرون بأصابعهم على الأواني الحديدية الفارغة ، ويرفعون أصواتهم بـ «الزومان» ثم يحركون أرجلهم إلى الأرض حتى إذا ما لامست الأقدام هذه الارض ازداد تطاير وتصاعد تلك الذرات حتى ينشأ من ذلك كله هالة تشبه السحاب ، فلا يكاد الإنسان يرى صديقه أو يتبين ملامحه ، وسمعهم في السيح وحوش عميره وحوش مناع،وزقاق سيد أحمد يتغنون بشاب اسمه علي البدوي ، ولقد كان التغني - يابني - يتصل بشجاعته وقدرته على القشلع بكلتا يديه ... »[1] .

فاحتواء جزئيات المكان المتمثل بالأزقة والحارات ؛ في هذا المقطع يحوله عبر صياغته الحركية إلى نبض للفعل الإنساني ، كما تنهض به ممارسة (شباب الحي).

وهذا التنويع المتراسل مع ايقاع سرد تفاصيل المكان ، يستوحي شجن التآخي بين السرد الكتابي كعلامة ثقافية ، يستثمرها الكاتب في النص ؛ حيث ينسجم فعل الشباب مع التقليد الحياتي الاجتماعي المتداول ؛ كممارسة ترفيهية شعبية ، بوصفه إفضاءً موحيًا بتناغم مع مد عاطفي جسور ، يفضي ويُسَرِّي به الكاتب عن ذاته ، بحيث يتكامل معطى البناء النصي في هذا الكتاب / النص كمتن ، ويتوخى أهدافًا مشتتة يستطيع المخطط الآتي تبيان خطها التصاعدي .

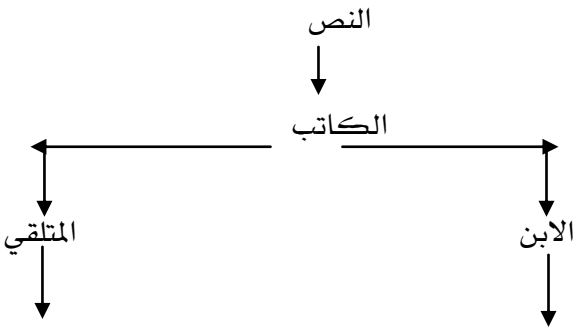

(١) ص ١٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المعلومة المعرفية الذات / الكاتب

المكان يزخر بثراء نوعي

والمكان الذي يحتوي الحركة المتشابكة لهذا المخطط ، يزخر بحكم مادته التكوينية بثراء نوعي لا يستطيع الكاتب استقصاءه ، بل يتقاطع مع حركة تناميه واستيجاده مرة أخرى إلى الآخر ، ويستطرد من بؤر التكوين الدلالية في النص ، إلى عصب التنامي الموضوعي ، فيما يبدأ بذكره كما في المقطع السابق ، بحيث يند عن القصد الأولي في الكتابة ما يؤصل عفوية النظام الذي تختاره الذات الكاتبة ، في تدوين مختارات من سيرتها ، وبالتنصيص الجغرافي الاسمي للأماكن القديمة التي كانت مسرحاً واقعياً لهذه السيرة ، إذ الجماليات المأنوسة والتي تحفل بها ذاكرته ، محرمة على الاصطدام بمشهد الواقع الجديد المتآلف مع التغيير والتبدل ، ليصبح العصب العلائقي الذي يربط الكاتب بالمكان ناتجًا عن معايشة طويلة في سني الطفولة والشباب الباكر ، تخشى مواجهة رعب المتغير المكاني ، حتى لا تنفصم علائق الارتباط الوجداني الشفيف بالمكان القديم ، ولا تند بصيرة الذاكرة عن مشاهداتها الأولى ، والتي نسجت معالم بقائها في ذاكرة المؤلف .

تواءم الصيغة المجتمعية ودور الذات في المجتمع

ويمثل البناء المضموني للكتاب تواؤماً بين الصيغة المجتمعية للمكان ، ودور الذات في هذا المجتمع ، ومحوريتها في تلقي خطاباته ، ثم في تفاعلها مع « النحن » وهو ما يسميه كمال أبو ديب «خرجنة التجربة »[1] . بمعنى نقلها من أفق الذات إلى فضاء المشترك الإنساني ، وهو ما يتحقق في خطاب الكاتب ، ومحاولاته استقصاء رصدي للمكان / المدينة ، عبر

(١) كمال أبو ديب – الرؤى المقنعة – نحو منهج بنيوى في دراسة الشعر الجاهلي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م – صـ٢٢١ – حيث يذكر أن «خرجنة التجربة» هي خصائص شعورية بنيوية للفكر ، للذات ، للعقل ، للإنفعال ، للإنسان في الحياة ، وهي جوامع المرجعية الحيوية لمؤلف السيرة في هذا المضمار كما نلحظها لدى عاصم حمدان .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مخيلة حيوية راصدة ومُسجِّلة للحوادث والأشخاص والأماكن ، بتبعاتها وإشاراتها المعمقة من جذر الذات، العاملة على أن تتلون هذه الذات بذائقة المكان في مستوى أداء الخطاب لرصيد تلك الذاكرة ، وفي مستويات الناجز اللغوي هنا ، عبر وحداته المقطعية والتي رتبها الكاتب على (تسعة عشر مقطعاً) مُسقِطاً أي إشارة زمانية ، بحيث يترك للذائقة أن تشترك في متعة الإنصات والتلقي لهذه الحياة المنقولة بتجسيدية بالغة الدقة :

« يستيقظ الرجل من نومه بعد أن ألقى ذلك الجسد المنهك على الأرض في « حلة » المناخة ، وبعد يوم طويل في المعاناة قضاه في جمع حفنة « من القروش » لقاء حمله في عربة « الكرو » لشيء من متاع الناس في أحياء المدينة ، يسكب الماء على وجهه من ذلك الإبريق ، الذي كان يصنعه أرباب المهنة ، في مكان غير بعيد من سوق « التمارة » ، يتوضأ من ذلك الماء الذي أصابه طل من سماء الأرض المباركة ... »[1] .

فما تفضي به هذه العلاقة بين الكاتب / والمكان ، قادرة على انجاز مفهومها الزمني استخلاصاً من وحي هذه الحيوات المنقولة عبر التدوين ، وفق ما توضحه منظومة العلاقة المترابطة في توالي إسنادات النص في تكوين فعلها الدلالي .

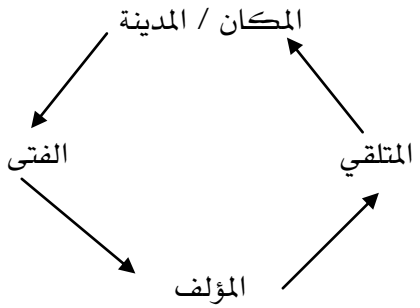

وهنا تصبح الكتابة - تدويناً - لتلك الجماليات التي وعاها (الفتى) ، والتي استحضرها هنا كتابة نصية ، يعيد كشف لذاتها للمتلقي ، بتلك

(١) ص ٢٩ .

تلون الخطاب
في الكتاب

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الصيغة التي تقترب من مزاج التأيين إذا ما استحضر حرارة وقعها الأول ، مصادماً لواقعها المعاصر .

ويتلون الخطاب الكتابي ، في هذه السيرة عبر تنويعات متشاكلة في مؤداها الاستهداف والغائي ، ففي المقطع الرابع ، من الكتاب يقسم (الموضوعة) إلى خمسة أجزاء في الأول منها يبدأ بإسناده الخبري ضميراً ظاهراً إلى غائب باعتباره معلوماً في الذهن القارئ ، وبحسب ترتيب هذا المقطع تالياً لثلاثة مقاطع ، صرح فيها بوضع (الفتى) متحدثاً بالنيابة عنه ، وفصله مشهدياً عن الكاتب فيقول : « توقظه المواجع من نومه ، لم يؤذن الفجر بعد بالطلوع ، ولكن آلات جلب المياه من الآبار تنبعث في صوت مميز من بين غابات النخل الكثيفة والممتدة على الضفة اليمنى من مجرى سيل « أبي جيدة » والفتى يعرف من بين أسماء تلك الحدائق بستان الطيبية »[١] .

فهذا الحفر في الذاكرة التي تتصيد جمالياتها ؛ مستلة من مكان هذه هويته ، وتلك تفاصيل زمنه وتواقيته ، ونواميس حركته اليومية ، بتفصيلاتها المتناهية في بساطتها وألفتها ؛ اعتبارات ترتيب فواصل خارطته ، تنزع إلى إضفاء هالات الحيوية الفطرية ، في نموذجية انوجاده في زمن سالف ، ويكرس الحاضر الملغي مدى تلك الحيوية والجمالية ، التي كانت صورة ماثلة عايشها (الفتى) ، وترسخت أجواؤها المانحة لحيوية ابتهاجه برصدها على ذلك النحو الذي يبتغي إثبات الرمز الجمالي للمكان في صيغته الماضوية زمناً ، والحضورية إحساساً ، عبر تقنية « الحيز » الجمالي التي تتيحه تجليات الذاكرة في لحظات تداعي تراكمها « يصل - صاحبنا - إلى الموقع الذي يفصل بين سوق « العياشة » وباب « المصري » سمع الرجل الصالح يناديه - مداعباً - على بعد « يا أبا ... » يسرع صاحبنا فأبناء الحارة كانوا يجيبون النداء ، ولا يتأخرون عن « الفزعة » يمد يده في أدب ويأخذ تلقيمة الشاي من الرجل الكبير ، ثم يدخل إلى

---

(١) ص ١٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مقهى

« محمد سلطان » ينتظر دوره بالقرب من « المنصة » الخاصة بصنع الشاي ، يتكئ في طمأنينة على الجدار المبلل بشيء من الرطوبة ، حتى إذا ما أتى دوره ، نادى عليه صاحب الشأن وأعطاه « براد » الشاي ، يحس بنكهة النعناع « المديني » التي إذا ما تسللت إلى أنف الإنسان ، بعثت فيه شيئاً من حيوية الحياة وزخمها بل وجمالها ... »[1] .

ثم يبدأ بعد ذلك ببضعة أسطر التنويع على شخصيات مثل :

« الجدة » : « الجدة (...) المرأة الصالحة الكاملة الكريمة - رحمها الله - والتي تسكن حوش المغربي في زقاق الطيار - كثيراً - ما ارتفع صوتها بمديح المصطفى عليه صلوات الله وسلامه في السالمية ،

والفيروزية ، والمصرع ، بستان أم الشجرة ، وعرس لا يتوج بحضور تلك السيدة - التي تغذيت من حنانها ، وارتويت من لبن « السعن » المنتصب من باب دارها ، - ذلك العرس أو هذا الفرح يعد ناقصاً ... »[2] .

فهذه الصيغة التي تقدم مكوناتها مباشرة وبلا مواربة إيحائية ، وتسقط على وعي الكاتب ، عدم ذكر اسم « الجدة» ، إنما تنتمي إلى نظامها القيمي بكل وضوح ، مسجلة حضورها عبر توالي انتقال فضيلة «الجدة » في الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم.، في تلك الأماكن المحددة ، والمنصوص عليها والمعروفة في المدينة ، لتنال بذلك توصيفاً يكرس جمالياته عبر الانتقال إلى أماكن موصوفة ، وهنا ينزاح القصد الذاتي إلى تكوين ملامح عن صيغ مائزة للعلاقة بين (الحفيد والجدة) يكون المكان الموصوف ثالوثهما المعمق لمثل هذه العلاقة ، والملقي بظلاله وحيويته على صيغته الوجودية ، ومشهداً لتلك الفضائل الممنوحة للجدة ، والتي يضطلع بها المقطع متناغما في سياقه النصي مع لفظ المفردات بصفتها المحكية الدارجة ، وكذا أسماء الأماكن ، التي تكون الصيغة الجمالية في مستواها الدلالي ، للمكان العام المدينة (فحوش المغربي ، زقاق

(١) ص ٣٠ .
(٢) ص ١٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الطيار ، السالمية ، الفيروزية ، المصرع) هي مسرح السيرة ، وهي جزئيات المكان ، المكونة لبنيته العامة ، ومنها نتبصر ، وقوعات وأحداث السيرة ، التي نحن بصدد اكتشافها قرائياً ، فيما تنقلنا بمحركاتها الصياغية ، إلى تلمس الحس الإنساني المتبدئ عبر تلك الأحداث المتضامة ؛ في إلف اليومي المعاش ، والمستوى الحياتي المشترك بين النماذج الشخصانية التي يعرض إليها الكاتب .

تلك النماذج التي يكون المكان مسرح اجتماعها ، والعلاقة المفصلية في ارتباطها وتناغمها الفاعل في الحركة الإنسانية .

وفي المقطع التالي تنويع على فحوى مثل هذه العلاقة :

« الشهر شهر الرحمة « رمضان » واليوم « جمعة » والمكان مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم - يرتفع التكبير من المقام لصلاة « الميت » تتزاحم الأقدام لحمل جثمان أحد رجالات البيت الحرام ، ولا تسعفني الذاكرة إذا ما كان الرجل الذي حملوه إلى بقيع الغرقد في ذلك اليوم المبارك هو الشيخ سالم جان شاه ... - رحمه الله - أم رجل آخر »[1] .

ويمثل هذا المقطع المدلل على التنويع ، في رصد تداعي الذاكرة، وكأنه يماثل تماماً الحديث الشفهي في تقاطعه في عدم الجزم بصحة المعلومة ،

ويجسد تطابقه بهذه الصيغة الشفاهية / المكتوبة عناصر البنية النصانية للكتاب القائم على المرجعية الوجدانية ، الذكروية ، وتقديم شهادة حية على فصول من السيرة، عاشها المؤلف في المكان الزاخر ؛ كما تشي الدلالات السابقة، بحمالياته وبخصوصية هذا الارتباط بين الكاتب والمكان، والتي نستوضحها من هذا الاحتشاد بالمواقف والأحداث .

العفوية في الخطاب عند الكاتب

فهذه العفوية في الخطاب السيري ، إنما تتآلف مع قصدية الكاتب المنكشفة ، والمعلنة في استجلاء جماليات عمومية ، في أنساق المعيشي والاجتماعي ، ومن مكان يحفل بها ، ويعاينها كل من يسكنه أو يزوره .

(١) ص ١٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهذه الجماليات المبنية على نسق مفهوماتي عيني ، يضفي وجوده وهويته على الحركة التي تعرضها السيرة ، وهي الدلالة المتجلية في النص ، في سياق تواضع ضبط هذه السيرة بمعايير الكتابة الفنية ، وإن عاضدتها صدقيتها ، وحسها الإشراقي المنحاز بدءًا للمكان ، حيث تنتاب الذائقة بدءاً بفنية المقال الحكائي ، الذي يتلبس صيغة القص الجمالي الفني في تلاقي المزيج الإنساني المتناهي في شفافيته عبر شخصيات الكتاب ، وهي الشخصيات التي ترتقي بحركتها ، وراهنية محركاتها الاجتماعية ، ثم ما يتعمده الكاتب من تعمية « الزمن » وتجريده من الضبط التاريخي ، لحدوث هذه الحكايات ومن انبعاث هذه السيرة .

المكان عند الكاتب مبثوث في فضاء زمني مفتوح :

فالمكان هنا هو (الدال) على الزمن ، وينصرف تواطؤ الكاتب مع المكان ، لجعل مفاهيم الأخير الجمالية ليست كامنة في زمن محدد ، بل مبثوثة في فضاء زمني مفتوح لا حدود له :

« وتسترجع ذاكرة الفتى الحي الذي نشأ فيه ، هذا هو المدرج طريق يفصل الدور عن مجرى السيل وإذا خرج الفتى رأى أمامه بيت العم أمين شيخ ، ثم بيت السادة آل الزهدي ، هنا تسكن المرأة التي احترق قلبها على فتاها الذي ذهب في ميعة الصبا وريعان الشباب ، وكثيرًا ماردد شباب الحي أنشودته المغناة :

الدنيا حلوة وجميلة والمدة ما هي طويلة !!

تُرى هل كان خالد زهدي رحمه الله يرثي نفسه بهذا القول »[1] .

فهذا الاسترجاع للمكان الأول في وعي الفتى ، والمغيب في نسيجه الصياغي معيار الزمن تحديدًا ، بينما تحتشد فيه الشخصيات وتتعالى تراجيدية حركتها الإنسانية ، مما يعزز زعمنا بأن المكان ؛ هو تلك الفاعلية المنتجة لصوت الحركة ، التي تتشكل عبر مقاطع هذا الكتاب ، وفي تضاعيف هذه السيرة المبسطة ، والتي تعيد الإسناد الكلي لتواتراتها ومأزقها وإشكالياتها المتلونة

(١) ص ٤٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جمالياً ، إلى المكان « الذي يبدو كما لو كان خزاناً للأفكار والمشاعر والحدوس ، حيث تنشأ بينه وبين الإنسان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر »[١] .

فهذا التبادل والتأثير الذي يجعل الكاتب في المقطع السابق ، ينتقل من الوصف المشهدي بمفهوم وعي حكائي شفهي ، كما ترمز إلى ذلك الدلالة الدينية ، حيث عني بتحديد الشهر واليوم « رمضان ، جمعة » وهي ما يتسق مع الخطاب الشفهي الشعبي حيث يزخر المقطع بوصف مقطعي سريع للمكان ، المسجد ، ثم الرجل الميت .

هذا الاستلاب لبداهة الذاكرة إنما يعبر عن ذلك المدى من الأفكار والمشاعر التي تتزاحم في الذاكرة ، وتنتظر لحظة خلاصها في الكتابة ، هي ذاتها الدرجة المحققة للذة الكتابة عن المدينة / المكان .

هل الكتاب تنفيس عن ذات متحسرة على أمكنتها القديمة ؟

ففي صفحات لم تتجاوز ستين صفحة ، يمارس الكاتب لعبة الإبهام مع الذات ، والزمن ، وكذا الرصد الفني لما لم يسمه « سيرة » ، هو في طبيعته التكوينية ومزاجه الخطابي كذلك ! بل يسميه « هتاف » ، فهل تصبح كتابة عاصم حمدان تنفيسًا عن ذات تتحسر على أمكنتها القديمة ؟

وهل هو تأبين للمكان في ذات الكاتب ؟ أم في ذات المكان ؟

وهل الإسقاط المتعمد لاعتبارية الزمن ، جاء عن قصد أم عفويًا متسقًا مع لحظة الكتابة.؟

إذا ما كانت مثل هذه الأسئلة تلين لذائقة خبرت ما يعنيه المكان في جلال وجودها الحاضر.، فإن تسرية الذات بمثل هذه الكتابة يعد تجاوزاً « إلى ما هو أبعد في العمق الإنساني وأكثر تعقيداً فمع المكان يقع الإنسان في ظل استشعار العواطف الذاتية .

(١) سيد بحراوي ، بنية الشكل الروائي المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م صـ٣١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والإنسان في تعامله مع السطح المكاني يستشعر معاني اللذة والألم والخوف والأمن ، وما يترتب على هذه المشاعر من أحاسيس داخلية ومواقف متداخلة تجعل النفس الإنسانية مكتنزة بعوامل المكان بشكل يصعب استقصاؤه »[١] .

فاللذة والألم اللذان يهيؤهما الاكتناز بالمكان ، ويقوي من صعوبتهما على الاستقصاء ، يغدوان متنقلين بين أجزاء المكون الذكروي في النفس ، وينتقيان منفذاً لتعبر النفس فيه عن عذاباتها بتسجيل تلك الأجزاء في خطاب تكويه معالم المكان الدارسة :

« لم تطل الطريق بالفتى كما طالت به ظهر ذلك اليوم ، هذا مسجد « الغمامة » وهذه بقايا من السوق القديم الذي ترسخت معالمه في النفس ، وتغلغلت رسومه في مساربها العميقة ، وهذه البوابة التي دأب الدخول منها « للحرم » إنه « باب جبريل » لم يبق من أهله إلا « حسن برقاوي » تذكر في تلك اللحظة العم « حسب الله » وهو يدق مسماراً في هذا الكرسي أو يصلح بالمطرقة أعوجاج أبواب غرف « الرستمية» »[٢] .

أثر الأسماء والأماكن

وهذا المقطع الذي يلج في ذاكرة الكاتب ، يكتنز بالأسماء والأماكن ، يدخل في نسيج بنية المكان ، وتتمشهد هذه الشخصيات في حيزها المكاني ، الذي يشكل بدوره فواصل في منظومة البنية العامة. والتي أسلفنا مدى فاعلية العلاقات التي تربطها .

وهنا نلحظ بعض الإلماحات عن الكنه المعماري لذلك الحيز ، ويحرص الكاتب على تعاطي البعد الترقيمي للكتابة دلالة مساندة مع البناء النصي ، حيث يضع الأسماء والأماكن بين « مزدوجتين » ويشكلها بنطقها الشعبي مفضلاً عدم شرح معناها مثل لفظة « الرستمية » ، ويستقصي جلّ المعالم الرئيسية المكونة للمدينة القديمة ، والتي يستوحي منها تجليات الحمولة الذكروية للأحداث والوقائع المختزلة لذاته ، في انفصال لازم عن محاولة استيهام الشعور الجمالي لتلك الأحداث .

---

(١) عبد الحميد المحادين المكان الروائي. مجلة البحرين الثقافية العدد ٨٠ – السنة الثامنة أكتوبر ٢٠٠١م – صـ٢٧ .
(٢) ص ٢٣ .

فمع الانفصال الزمني بين زمن الكتابة ١٤٢١هـ عن زمن وقوعها (السبعينيات الهجرية) تعيد الذاكرة استجماع ملذات وجودها القديم ، ويتأتى للذات الكاتبة تدوين جماليات المكان القديمة ، والمشتتة بين حيوات عدة ، تتشاكل وتختلف ، بحسب اختلاف وتنوع حركة الصراع الحياتي اليومي ، مع أبعادها الإشارية تاريخياً ، ولا سيما وهذا المكان / المدينة ، يمثل مرجعية تاريخية ثرة ومتعددة الأنساق الحياتية والحضارية ، و « المخزون التاريخي لهذا المكان يمد ا لكاتب برؤى ثرة ، إلا أن ذلك كله لا يعطينا فناً بدون رؤية الشخصية وهي تعمل ، والحدث وهو ينمو ، واللغة وهي تعكس الوعي والأسلوب ، إن التاريخية في أجمل مفاهيمها هي تجسيد لطريقة الحياة »[1] .

عناصر أخرى تؤكد تصنيف الكتاب في السيرة

وإذا ما كانت هذه السيرة التي ينقلها الكاتب ، تسقط من حسابات المتلقي بدءاً فنياتها الدلالية ، حيث لم ينص الكاتب على فصيلته الكتابية ، قصة أم سيرة أم يوميات ؟ فإنها تأخذ هذا التقنين من طبيعتها الحيوية ، ومن استلهامها الضمني لفن السيرة بمعايير الصدقية والنقل الواقعي ، في ظل هيمنة الرغبة في اضاءة مكامن المكان وتصوير جمالياته .

كما يعد ارتهانها لدلالة العنوان ، معبراً لمزيد من الرؤى القارئة، حول فحوى هذا النسيج الكتابي، لأماكن نراها ونعرفها! ولأشخاص تتحفز ذاكرة الكاتب لتسجيل ذكرهم في سيرته ، باعتبارهم مكوناً من مكونات هذه السيرة ؛والتي تمثل جزءاً من تاريخية المكان وبما تحفل به من محمولات جمالية .

بمعنى أن تاريخية الحدث ، الذي تبعثه الكتابة، والشخصية التي تعيد إحياءها تمثل بعداً تقتنصه جماليات المكان ، للتأكيد على أن مفاهيم التاريخية ، غاية مثلى ، من غايات الحياة التي تكونت في أحياء ذلك المكان .

الزخم العددي للأماكن في الكتاب

ويُبرز الزخم العددي للأماكن والشخصيات في هذه السيرة ، مدى استحضارها لتاريخيتها ، من جهة ، وتكثيفها لبؤرة المكان المهاد الأول«المدينة » ،من جهة أخرى، وهذه السمة التوثيقية الأبدية ، تنطرح جمالياتها الاستثنائية ، من بعد تاريخي

(١) ياسين النصير– اشكالية المكان في النص الأدبي– دار الشئون العربية العامة، آفاق عربية – بغداد ١٩٨٦م صـ٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يزخر بإيحاءاته الحضارية المعرفية والاجتماعية ، فقد شكلت الأماكن والشخصيات زخماً يوضحه هذا الجدول الرقمي :

الأماكن والشخصيات وعدد وجودها في السيرة	
الشخصيات	الأماكن
٧٦ مرة	٥٤ مرة

ويمثل هذا الرصيد التراكمي للأماكن ، وقصدية الكاتب المدوّنة بمنطقها وتشكيلها بمعيار صوتها الشعبي المتداول ، علامة على وضعها في سياقها القيمي، المعبر عن جماليتها في هذا المستوى الصوتي النطقي إذ « الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحالات نفسية والألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت . وكما أن الكتابة ليست واحدة عند البشر أجمعين ، فكذلك الألفاظ ليست واحدة هي الأخرى . ولكن حالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع »[١]

وبذلك تكون قيمة اللفظ الدال على المكان كعلامة على الحيز المتعارف على وجوده وصفاته . ورابطاً بمحتواه بين الغايات المختلفة للأشخاص ؛ منفذاً للتدليل على رسوخ قيمته في نفوس الأشخاص الذين تعايشوا معه وتفاعلوا مع وجوده في حياتهم ، ولذلك جاءت الصياغة اللغوية لهذه السيرة متكاشفة ومرنة بشكل نسبي ، مع المتداول الدارج لتلك الصياغة ، مع تأكيدها اللفظي المباشر لنطق أسماء الأماكن بلفظها الصوتي المتداول والمتعارف عليه في بيئة المدينة .

والكاتب إنما يستلخص ، عبر هذه القصديه نقل المتصور الشعبي صوتاً ودلالة ، عن المكان ، لمكانته في سياق السيرة ، وبالأشخاص الذين تتوالي محطات وجودهم في حياته ، وفي حياة المكان وتاريخه في فترة زمنية إيجابية مؤثرة في نفض النسيان عن هذه الشخصيات المسكوت عنها .

أثر استدعاء الشخصيات

(١) سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد ، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مقالات مترجمة ودراسات ، دراة الياس العصرية . القاهرة صـ٤٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن استدعاء وجود الشخصيات في سياق سيري كهذا ، ينمي من حافز الذائقة الكاتبة على استعادة وجودهم في ذاته ، كونهم مفصلاً مهماً في بناء جماليات المكان / المدينة ، التي شكلت وعيهم في ذهن الكاتب ، مثلما صاغت وجودهم الذي يعبر عنه الكاتب في تغير حركة الوقائع واختلافها حسبما تمليه ظروف المعيشة آنذاك ، وقد استبانتهم هذه السيرة بصياغتها التعبيرية التي تجذر معنى فقدهم بدلالتها الضمنية ، وراهنية كتابة السيرة والتي يستدعيها الكاتب من ذاكرة في زمن يلي زمن الحيوية والفاعلية المعيشية التي كانوا يمثلونها .

والزمن المتواري برمزية ، يشير إلى مادة الحكي ومضامينه ، إذ عناية الذاكرة هنا تحتشد بالمكان وتفرزها الذاكرة الإنتقائية ؛ التي اختارت مساقها الجمالي ، بالتعبير عن حيوات الأشخاص الطيبين ، والمغرقين بالمثالية وحميمة الترابط الإنساني .

على أن الزمن المرتبط عضوياً بالمكان ، والذي أسلفنا ضمنيته في النسيج الكتابي ، يتوارى ظاهرياً في هذه السيرة ، بينما يحضر كعلامة دلالية على غياب الجمالية المستحضرة في القص ، بفعل زمنها السالف المتواري ، ولذا يعبر باختين (أنه لا يمكن الفصل بين الزمان والمكان ، بمفهوم « الزمكانية » التي تمثل حقلاً دلالياً وجمالياً في العمل الأدبي) .

وإشارات الكتابة الدالة على تعريف زمني ديني مثل « رمضان » « الجمعة » « رجب » « الحج» والتي يوردها الكاتب ، تندغم ضمنياً في مدى زمني غير محدد ، ولذا لا تمثل مفهوميتها المحددة بقدر ما تتعاضد على أن تكون مساقاً تكوينياً في مسافة المكان المعبرَّ عن أحداثه ، والمنقولة وقائعه وظروفها ، والتي يكثف فيها لغة التأبين والأسى مستلذاً بذكر أسمائها ، بما للفظ وترداده من متعة في أدبيات اللغة العربية ، ووفقاً للتشكيل البنائي الذي تنتظم فيه هذه السيرة :

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

« واختفى ولد الحارة في زحمة الحياة ، وتوارى عن أنظار - رفاقه - من أهل الحلة ، وافتقدته رحبة باب المصري ، ولم يُر إلا في اليوم الذي حملوا الرجل الصالح إلى - مثواه الأخير - في ضحى يوم أغر يتذكره - العبد الفقير إلى الله - ويزداد حنينه - كل يوم ، للأيام الخوالي التي قضاها في كثير من الحبور بين المناخة وباب المصري »[١] .

وفي غير مكان من مقاطع السيرة يبرز اتكاء الكاتب على ذاكرة بصرية عاينت المكان ، وتداخلت مع جغرافيته ، وبالتالي يستقر في مستودعها وصفحاتها تجسيد حي لنبض المكان ، وتواليه وحواشيه ومفرداته من الأمكنة « المناخة ، باب المصري ، الحله » إلى ذلك التراكم العددي ، الذي أسفلنا إحصاءه ، والذي يعزز استيلاد فاعلية الكتابة وحياة زخمها المعبر ، من الوقائع المتتالية (للفتى) مع المكان .

ويتكرر في لغة الخطاب اسمه المباشر أحياناً في مغزى تربوي حيث يخاطب (الفتى) : (يابني) مستنبطاً قصداً تبادلياً للخطاب بين نص الحكاية/الواقعة ، وبين ذكر (ما حدث) للابن ، وهو ما يقطع نبرة التعبير الفني ، وينأى بها عن الانتظام في السياق السيري ، على النحو الذي يحفز ذاكرة (الفتى) لمزيد من استقصاء مخزون الذات « المرأة المثال » يا « بني » هي التي حدثتني كيف أنها كانت بعد انقضاء أسبوع على وضع حملها ، تطوي فراشها بيديها لتستيقظ مع كل فجر لتوقد النار في « الوجاق »[٢] .

ويقول في موضع آخر :

« كأنني بالرجل الوديع المبتسم - في سوق العياشة - ينادي الغادي والرائح يشتري شيئاً من ذلك الخبز المتميز الذي يدعونه في البلدة الطاهره بـ « الشريك » ويعرض في مدن أخرى مثل مكه شرفها الله بـ « السحيرة » يقول الصوت « الشريكة » ستة هلل ... قرش ونصف !

---

(١) ص ٣١ .

(٢) ص ٣٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأجيال الصاعدة قد يأخذها شيء من الدهشة إذا ما عرفت أن « أقة » اللحم كانت ببضعة ريالات »[١].

فهذا الخطاب المعني باستهداف دلالات عدة ، يبرز فيها نمط الخطاب الموجه للابن ، ويستقي ضمناً مقارنة جلية بين فترتين تاريخيتين ، إنما يستهدف في صياغته العامة ، نقلاً بصريًا من الذاكرة المسجلة للجماليات ، المبثوثة في هذه التفاصيل الحميمة للحياة ، بوقعها الحركي اليومي ، وبأناسها المنصوص على وجودهم واقعياً ، ثم في استطراد ما يلين للذاكرة من جماليات حركتهم اليومية في المعيش المتبادل بينهم.

ويبرز النص أماكن بذاتها في المكان الأم « المدينة » ، لتتوارى في الذاكرة المنتجة لهذا الخطاب حيثيات تلاشي الصورة أو فقدها.، وهنا تكمن جدوى هذا النقل التصويري ، في ثنايا سيرة تعطي للآخر الإنساني ، والمكان الجمالي ، وجوداً في النص يعادل وجود صاحب السيرة ومكونها .

بحيث تتناغم سيمياء الوجود ومعادلة ايقاعه (الإنسان (الآخر) + المكان + الذات) ويجيء وجودها تالياً ومتشكلاً بأجزاء المعادلة لا مشكِّلا لها ، ومتأثراً بها ، وغير مؤثر فيها.، حيث القصد الدلالي للكتابة ؛ الحفر الاركولوجي في الذاكرة باتجاه المكان! واستنباط جمالياته، سواءً بالوصف البيئي الساكن ، أو المعيشي المتحرك ، أو القيمي المتغير ، باتجاه تكوين النموذج الجمالي العام .

تناغم الطابع البيئي للمكان مع السياق المحكي للسيرة

ويبرز إلى المشهد الكتابي في هذه السيرة الطابع البيئي للمدينة / المكان ، ليس بقصد إبرازه وتفصيل مقاطعة المرئية أو وصفها ، وإنما متناغماً في السياق المحكي للسيرة . للدرجة التي يتطابق فيها هذا الطابع المدني لبيئة حضرية مع تماس هذه السيرة وتفاصيلها المحكية، ومع رؤية حقيقية ومشاهده في المدينة، كان محمد كبريت الحسيني قد أشار إلى مكوناتها الحضارية في كتابه « الجواهر الثمينة في محاسن المدينة» .

(١) ص ٤٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

على أن السيرة التي ينثرها عاصم حمدان ، تتعاطى في جوانبها الظاهرة ، مع كاريزما الشخصية العامة/(المدينة) ، والتي توصلت إليها الأبحاث العلمية في هذا الجانب ، فمن قراءة النصوص التاريخية يمكن القول « أن المدينة المنورة ظهرت كمركز عمراني خلال الألف الأولى السابقة للميلاد ، ويقف وراء ذلك وفرة الموارد المائية وخصوبة الأرض في هذا الموضع (الواحة) إلى جانب أنها كانت إحدى المحطات الرئيسية على طريق القوافل الدولي القديم (البخور) والذي كان يربط جنوب الجزيرة العربية ببلاد الشام أضف إلى ذلك تميزها بالحصانة الطبيعية التي جذبت أصحاب رؤوس الأموال والتجارة إليها »[1].

ويبرز معطى هذه النتيجة والحقيقة العلمية ، في فحوى السيرة التي نحن بصددها والتي تتكئ مرجعياً ومعرفياً على تلك الحقيقة ، وإن كانت في خطابها تشي بمزاج الخاطرة المنتقاه من الذاكرة ، فهي تستنطق الواقع المعيشي الذي كان نتيجة لذلك التراكم التاريخي المورفولوجي للمكان ؛ شاء القدر أن تلين كل التحولات التاريخية والإنسانية الأجناسية ، لتكون مادة لجمالياتٍ تتأسس على حركة المتغير الإنساني والواقعي ، وليكون تسجيل تلك المتغيرات والتحولات ، استعادة لحيوية ذاكرة تبحث عن لذاتها الحميمة وتستلها من ذاكرة المكان .

الكتاب مزيج من المعرفة الوجدانية والمشاعر المستبطنة

وما هذه السيرة التي كتبها المؤلف ، إلا اتساق مع ذلك وتفسير تدويني له ، فهي ليست بالخطاب المقالي المتجاسر لإيصال المعلومة المجردة ، وليست بالنمط السيري الذي يحتفي بالذات منفصلةً عن أمكنتها ، ويتدرج بزمنيتها المتراتبة بدقة ، ولكنها مزيج من المعرفة الوجدانية ، بخطاب يستحث مكوناته في الذات أن تسترجع ما عايشته وما كونته من مجريات وأحداث ! وما استبطنته من مشاعر ؛ كان المكان فاعليتها المحركة ، وكان مسرحها الحاضن لكل أطيافها وألوانها .

(١) د. محمد أحمد الرويثي ، الموقع الجغرافي واستراتيجية المكان ، بحث منشور في كتاب (المدينة المنورة البيئة والإنسان) ، إشراف وتحرير د . محمد أحمد الرويثي ، د . مصطفى محمد خوجلي الطبعة الأولى ١٩٩٨م صـ١١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فذلك التراكم العددي للشخصيات الواقعية التي عايشها الكاتب، والتي لم يكن له مناص عن ذكرها ! حتى ولو كان ذكرها إشارة إلى موتها ! وبلا ارهاصات عن حياتها ، إنما يؤكد خصوبة هذه الذاكرة ، ومنحاها القصدي في تدوين العلائق المتشابهة والمتشاكلة والمختلفة في آن .

وعلى صعيد تسجيل تاريخ المدينة في حقبة ماضية ، وبساطة التكوين الشخصاني للشخصيات كل على حدة ، وإثباتها على مشهد السيرة ، يعطي لها تلك القيمة الدلالية في ذات كاتب السيرة ، وذات العمل المستهدف للجماليات .

أثر الشخصيات في جماليات المكان

فجماليات المكان ، وقيمة الوجودية ، ترتهن في جزء من أجزائها لهذه الشخصيات التي لم تكن عابرة كما جردها في ذلك واقع الخطاب الحياتي ، وإنما أصيلة ومنتجة بأبعاد إنسانية صميمة ، كما تنقلها إلينا الكتابة السيرية ، وكأنما كل شخصية إمضاءة في صفحة الذاكرة ؛ بوجود قوي ومهيمن ومحفز على التذكر يستعيدها الكاتب ويقدمها بنظامها الصوتي المحكي ، كما يتبين من سياقها الصياغي ، واحتشادها بالألفاظ الدارجة ، وحرصها على احتواء ذلك الكم من أسماء الأماكن ، التي تؤرخ لأحداثها وتنوع الشخصيات وتعدد نشاطها الحياتي الحركي ، الذي يمثل جزءاً من هوية المكان .

« انقضت صلاة الظهر ، أحس في تلك اللحظات بشيء من التعب ، سلك الدرب إلى باب العوالي طرق باب صديقه « الزين » ، أجابه صوت بأنه غير موجود !! وسأل - نفسه - متى يستريح صديقه من هذا التجوال في أماكن متباعدة من البلدة الطاهرة ؟؟ واليوم يا صديقي أضحى النزوح إلى داخل النفس ، ولم يعد يروي الظمأ ذلك الماء الذي كان يسكبه الرجل الذي يحمل « جملته » ويسقي بها المصلين عند باب السيدة فاطمة - رضي الله عنها - ماء تفوح منه رائحة الكادي وثياب تتضمخ برائحة « العود » المشتعل في مجمرة « الشريف حسن

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

طاهر» رحمه الله ، لم يطل به المقام في دار « الزين » كعادته قطع الطريق بين باب العوالي وسوق « الخضار » في شيء من الترقب والحذر ... »[١] .

فذكر شخصية « الزين » وإشاريتها الاسمية في الانتماء للمدينة لا نتبين منها فحوى تفصيلية لهذه الشخصية ، وإنما يستعيدها السياق السيري ، ليستعيد الكاتب معها حيوية ذلك المكان عبر الانديا ح العفوي فيذكر ما تستشعره النفس من الطمأنينة فيه ، ثم يتسامى الوصف لينص على الجمالية الحركية في وصف «الساقي» والجو المحيط بالمصلين في ذلك المكان وشخصية « الزين » والذي نعتبره نموذجاً من نماذج الشخصيات السيرية في هذا الكتاب ، يحتفظ بموقعه في ذاكرة الكاتب ، بذات التحفيز على إعادة استيجاده في الخطاب السيري ، إذ هو ممثل باستقلاليته الإنسانية حيزاً في جماليات المكان ، فما كان يقوم به ، ما هو إلا نشاط حركي ، يتسق مع منظومة الحياة « المدينية » في ذلك الزمن ، ومن ثم تكون إعادة تدوين فعله تأكيدًا على جدوى وقيمة وجوده في هذه الحركة النابضة .

وعبر متواليات فعله ذلك ، يتراكم بناء الشخصيات المتكونة وجوداً لدى الكاتب والتي تأخذ من الخطاب نصيبها الحقيقي في الانوجاد والتحقق ، ويتطابق معها الكاتب وراوي السيرة ؛ المتواري في السياق اللغوي (الفتى) في عالم حقيقي مواز للعالم المأنوس ؛ الذي تستنبطنه ذاكرة (الفتى) ، ويتولى الكاتب بعثه بالتدوين ، حيث التدوين بعث للذاكرة بمكوناتها الحميمة ، ورفض لهمينة الو أد التي تتمثل في عدم تدوين مثل هذه الأحداث ، والذي يفضي بها إلى الزوال والتلاشي بزوال ممثليها ، ونماذجها الإنسانية المخلقة لها ، والمكونة لوجودها .

ومن هنا يكون للتدوين قيمته الثقافية في نقل هذه المكونات الحياتية، وبعامل التراكم الزمني والتعاقب التاريخي ، إلى مزية للكتابة مما يعطيها صفة الديمومة والبقاء .

---

(١) ص ٢٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويصبح التدوين حينئذ وجهاً من وجوه الجماليات، بحيث لا يختزل كل ملامحها بقدر ما يصور انعكاسها الجمالي المتداول على المشهد الثقافي ، فضلاً عن وثائقيتها في رصد المتغير المجتمعي ، ومتعالقاته البيئية في المكان والسكيولوجية لدى ممثليه من النماذج الإنسانية.

والقارئ للسيرة لا يستبطن مفاهيم ، تلغي فاعلية الحقيقة المجردة التي ينقلها التدوين ، وإنما يتعاضد التدوين السيري مع حقيقة وجود « المكان » بمستواه وإمكاناته الجمالية وتفاصيله المنصوص عليها كتابة وحقيقة ، فليس ثمة غرائبي متعال في فانتازياته .

التلاحم بين عصر تدوين السيرة وتكونها الواقعي

وليس ثمة انفصال تاريخي حدي بين عصر تدوين السيرة ، وزمن انوجادها وتكونها الموضوعي/ الواقعي ، بل اتساق بين تدوين ذلك الوجود ، وأمكنة تبلوره وتخلقه ، متدرجاً عبر الزمن والمكان ، متناصاً في وثوقيته العلمية وانوجاده الحقيقي، مع رؤية مشاري النعيم الذي يرى أننا « نتحدث عن أمكنة إدراكية تشكل عقل المدرك فالمكان البصري التجريبي يضع المعرفة في دواخلنا ، فنحن نكتسب فكرة المكان بالنظر واللمس - والمكان السمعي - والمكان البصري ، أمكنة تشكل في عقولنا باستمرار ، وفي المدينة المنورة ، ورغم تشكل المكان البصري عبر تاريخ المدينة الحبيبة ، إلا أن هناك المكان الحقيقي الثابت الذي يجعل أبصارنا وعقولنا دائماً مرتبطة به ، المكان الشريف ، هذا المكان الذي يجعلنا ننطلق للفضاء البصري المتخيل ، ويعيدنا للتاريخ » [١]

فثمة تواطؤ عفوي ؛ مسارة علمية النتيجة وصدقية الحدس ، المبني على الحقائق التاريخية ، وجماليات المكان الناجزة ، والماثلة للعيان ، مرتكزها تلك الحصيلة التي لا يخطئها المتبصر بعمق بمثل هذا المكان .

والنعيم إنما يقرر حقائق استلهمها من حدسه العلمي ، واستقاها وصاغها بروحه المتجلية والمنحازة للفن والجمال الخلاق ، وبفعل سيكولوجيا

(١) د . مشاري النعيم مرجع سابق صـ٤٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المكان/المدينة في ذاته ، وذلك ما يعزز القيم الجمالية التي تتوخاها هذه السيرة ، بحيث يمثل فيها الراوي الراصد ، والمسجل للجماليات ، فتصبح منقادة لتواليها الذكروى من ذاته ، منصاعة إلى إنديا حها من ذات مولعة باحتواء أكبر مد مما سجلته في ماضيها ، وما استودعته من عوالمها الغابرة .

كما تكتنه هذه السيرة ضمير (القدسي) ! ليس في التأكيد على مثله ومواضعه ، أو الاستعراض النصي لنماذجه ، وإنما بالوعي المضمر في الذاكرة السيرية لهذا القدسي ، فمشهد السيرة ، وعنوانها يأخذ إشاراته الجمالية باعتبار أسس « المقدس » الديني ضمناً في منظومته وأصيلاً في بنيته العامة .

والارتباط بالمكان (المقدس) (الحرم) يأتي في سياق السيرة وتنامي مفاصلها باتجاه توترات الذات وتجلياتها .

والإحساس بعظمة (المقدس) إنما تنبعث من دلالات التدوين ، ومن حركاته النفسية وبواعثه الذاتية .

فهذه السيرة قدر لها أن تتكون في رحاب الحرم النبوي ، وأن تستوطن هذا المكان ، ليكون منبعاً لجمالياتها وموطناً تتلاقي فيه صيرورة الذات الحركية في معيشها اليومي ، الاعتيادي ، وفي مكامن الجمال الاستثناء ؛ وبهاء العلاقة بين الإنسان ، (العلامة الأولى) لكاتب السيرة ؛ وبين (المكان) المحتوى والأساس في هذه البنية الجمالية .

فتداول هذه القدسية على نمط السلوك اليومي ، يتسق في الشعور الجمعي وفي السلوك المترجم فعلاً واقعياً ، ويتسم بتلك السماحة ، وطهر السريرة ، في ارتهان لجماليات البيئة الشعبية الموغلة في طوباويتها ، وفي تلقيها للفطرى الإنساني ، وفي فعلها الشفوي المترجم للثقافة الدينية في متن النسق الاجتماعي .

وما تمثله هذه الثقافة ، من بعد تلقيني يمارس بعد ذلك ! وكسلوك ينتمي إلى الالتزام القناعي بتقاليد هذه الثقافة ، ويعبر عن كينونة تعالقها التناصي بالاجتماعي ، على النحو الذي يعبر عنه قوله :

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

« لا أعلم يا بني إذا ما كنت قادراً يوماً على الإمساك بيدك يوماً كما فعل جدك معي - في طفولتي وشبابي وسرت بك حول رسوم المواضع التي عبقت أرجاؤها بذلك التاريخ المشرق الذي كان بدايته عندما اختار الخالق - عز وجل - تلك الأراضي المباركة لتكون مهاجراً وموئلاً لحبيبه وصفوة خلقه - سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه - ثم ضمته أحشاؤها متباهية ، ويحق لها أن تتباهى - واحتضنت جسده الشريف ذرات ترابها الزكيّ ، متفاخرة ، ويحق لها أن تفاخر ، ومنذ ذلك اليوم أو تلك اللحظة في تاريخ هذا الكون ... »[١]

فهذا التبسيط في الوصف السيري، والذي تتقاطع صياغته المباشرة المقالية ، بالتأمل بعظمة المكان ، وامتلاء الذات بالإحساس بقداسته ، يعبر من ذائقة الكاتب في توال مرن حيث لم يتحسس بدءاً لصيغة سيرية لبنية الخطاب ، بل عبر عنها بعفوية بالغة ، توقعه أحياناً ، بالمباشرة التعبيرية، على أننا نلحظ ذلك على مجمل البنية النصية للكتاب .

إن إكتناه (المقدس) باعتباره الديني ، يكوّن السدى المفاهيمي ، الذي يعبرعنه الواقع الحياتي في السيرة ، حيث أسلفنا مدى مشاكله النص القرآني ، والحديثي ، وإنعكاسه حضارياً في السلوك المجتمعي للمدينة / المكان ، بما تمثله سلوك الشخصيات المنتقاه في السيرة وما تفرزه علائقهم الماثلة فيها من تعابير تفصح عن تناغم هذه القدسية الدينية ، مع شعورهم الضمني وتربيتهم وتنشئتهم الثقافية ، ولا سيما ومرجعية (المقدس) هنا تتكئ على رصيد ثر من الفضائل الاستثنائية للمكان حيث وردت في القرآن الكريم أربع مرات بالنص على اسمها وصفتها « المدينة »[٢]

استثنائية المكان/المدينة ومرجعيته

وبالنص عليها بصفاتها ثلاث عشرة مرة ، وورودها في الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ثلاثمائة وخمسين

(١) ص ٣٥ .

(٢) د. صالح بن حامد الرفاعي ، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة ، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية الطبعة الأولى ١٩٩٢م صـ٧١٥ -٧١٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حديثًا ، وورودها في الآثار الواردة عن الصحابة حوالي ست وثلاثين مرة[١] .

فهذه المرجعية المؤكدة على استثنائية المكان ، حسبما ينص عليه الخطاب الديني في أسمى مراتب قدسيته (القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأقوال الصحابة) وهي مصادر التشريع الإسلامي ، تعطي بعداً دينياً ، يتنامى في محايثاته للنسق المجتمعي ، وفي انعكاسه النموذجي ، على الأخلاقيات والسلوكيات ، ونظم التعامل في الأحداث والأشخاص الذين احتشدت بهم السيرة ، مما يجعلها تسترفد ذلك في نقلها لضمير الإنسان في المدينة عبر وقائعه المشهودة وعبر ممارسته اليومية .

وهذا ما يسترفده كاتب السيرة ، في الحديث عن بعض الشخصيات التي أسلفنا حصرها والتي تؤكد قيمها الاسمية ، مدى التعالق الحميمي في ما بينها ، مما يجعل هذه المدينة مشتركاً حياتياً لذلك الكم من الأجناس المختلفة ، والتي يحقق البحث العلمي إمكانات استيطانها للمدينة ، بوحي من دلالات النص المقدس واغتناماً لفضائل المكان التي يكرسها هذا (المقدس) عبر نماذج خطابه ، وبحسب الدكتور محمد السرياني[٢] « فقد أدت الأحداث التي وقعت في الأقطار الإسلامية في العهد العثماني الثاني إلى الفرار بدينهم ودنياهم إلى المدينة المنورة وبقية مدن الحجاز، وقد بدا ذلك واضحاً في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث نجد العناصر العربية من داخل الجزيرة العربية وخارجها وخاصة من مصر والشام والعراق واليمن وأقطار المغرب العربي ، بالإضافة إلى الأتراك والهنود ، وسكان آسيا الوسطى (البخارية) والأفغان والأفارقة (التكارنة) وكوّن هؤلاء المجتمع المدني وحصل الاندماج والتزاوج وتشابك المصالح » .

---

(١) المرجع السابق صـ٧١٩ ، وفي الكتاب المذكور جهد بحثي استقصائي في الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ، والآثار المنقولة على الصحابة في فضل المدينة وحب السكن والإقامة بها ، وقد أورد المؤلف في الفهرس الآيات المشار إليها في البحث .

(٢) أ.د . محمود السرياني (السكن الحضري) بحث منشور في كتاب (المدينة المنورة ، البيئة والإنسان) مرجع سابق صـ١٨٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فمخرجات البحث العلمي هنا تتواءم مع ذلك النسيج الأجناسي الذي تفصح عنه السيرة بإشارات أسماء الشخصيات الدلالية ، والتي تُكوِّن بيوتات المدينة ، وقاعدة المجتمع المديني ، وهي بتآلفها الذي تفصح عنه الأحداث السيرية تعكس جماليات التعايش ، ومعاني صدقية التعامل والألفة الذي تنصهر في بوتقة المكان / المدينة وتكوِّن لحمة بنيته ، وتكرس نموذجية الإنسان المتعالي في قيمه النبيلة المثلى ، على النحو الذي تؤكده السيرة في استكناهها بقيم التعامل الإنساني بما يصل لدرجة الإشراق ، في مدى الشخصية الأصل ، التي تنفض لها مغالق السيرة وتتبني عليها أحداثها وتفاصيلها ، وهو الاكتناه الذي يوائم بين المفهوم النقلي، للتربية الدينية المتناغمة مع الرصيد الثقافي المكتسب من الحياة ، وبين انعكاس هذا المفهوم على واقع السلوك ، الممارس :

« ولقد أدركنا من أهل العلم نفراً كريماً ونادراً في علمه وخلقه ومسلكه كفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح - رحمه الله - الذي صعد منبر مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأكثر من أربعين عاماً - فلم تخرج منه كلمات الكفر والشرك في حق أحد من أتباع الديانة السماوية الخاتمة ، وكان - يابني - رفيقاً بجيران المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ومقامه الطاهر فوجد أبناءه قد تأدبوا بذلك الأدب الرفيع الذي عمل - أبو محمد - رحمه الله على أن يأخذه منه الأبناء والأحفاد – وعندما نادى المنادي أحياء طيبة بأن الشيخ الموقر - ابن صالح - قد غادر الدنيا - هبت المدينة - جميعها - شيوخاً وشباباً وأطفالاً ليواروه في التربة التي أحب وتأدب مع صاحبها وصحابته وآل بيته رضوان الله عليهم - »[1] .

فمتغير النسق الذاتي لكاتب السيرة إزاء دلالة الفقد ، يستدعي إثراء اللحظة بوصف العَلَم « ابن صالح » كما تتصوره ذات (الفتى) ، وكما تحفظ عنه تلك المناقب والخصال والمآثر التي تكرس مفهوم الرجل النموذج ، تماماً مثلما تعطي لشخصيته تلك القيم الجمالية بالصدع بالحق ، والتسامح وكرم الخلق .

(١) ص ٣٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتلك صيغة من صيغ التركيبة التربوية التي يجتهد الخطاب السيري في إثراء بنيتها بالشواهد ، والمشاهد ، ويربطها الحدث الواقعي ، ويؤكد على معطياتها ونتائجها .

وذلك هو التعامل المؤسس على اكتناه التربية الدينية الفطرية في أسمى مراتبها .

وسوف نحاول اكتناه مزيد من القيم الجمالية للمكان ، في غير نموذج إنساني ترك فيه المكان / المدينة - ذلك الضوء الجمالي المحتوى لأبعاد الوجود الحياتي وتناقضاته في الفصل القادم .. لتتوقف عند سمات النص ، وبُنى مضامينه ومرجعياته ، ومدى تمركز علاقته بالمكان / المدينة . واضطلاع نصه بالحفر في ذاكرتها الشعرية .

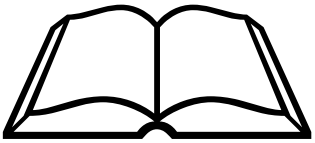

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة